الفصل الثالث

جرمو العراقية أقدم قرية في العالم!

لم تكن حضارات ما قبل التاريخ تثير اهتمام الباحثين إلا أن الاكتشافات الأثرية الغنية لمرحلة التاريخ المقدرة ببداية الألف الثالث قد فتحت الأبواب على عصور الثورة الزراعية وصناعات الفخار والحجر. وعندما بدأت الحفائر الحديثة . الأوروبية . في المنطقة. لم يكن هناك سوى قليل من المعلومات عن العراق في مرحلة ما قبل التاريخ، وقد كانت سورية وفلسطين ولبنان قد قدمت معلومات مهمة عن هذه الفترة بفضل تنقيبات وأبحاث متعاقبة[1]. وبدأ العلماء يهتمون بمرحلة ما قبل التاريخ العراقية منذ عام 1958. وظهر في بعض المواقع السومرية طبقات بنائية متصلة بمرحلة بدء حضارة السومريين نحو 3000 ق.م. ولوحظ أنه هنالك ثقافة ما قبل سومريه تمتد على قرابة ألفي سنة سابقة لها. ولكن العمل العلمي لم يبدأ إلا على يد الأستاذ دوروتي جارود Dorothy Garrod عام 1928 الذي اشتهر من خلال تنقيباته في فلسطين، فقد شرع بما يماثلها في شمال العراق في مواقع تدعى زارزي Zarzy وحزر مرد Hazar Merd حيث عثر على آثار «حجرية قديمة» أو باليوليتي Paleolithic. ولكن هذه النتائج لم تكن كافية، ولذا فقد قرر معهد الدراسات الشرقية في شيكاجو أن يتصدى لدراسة الفترة التحويلية في الشرق بين الصيد والجمع في نهاية العصر الحجري القديم وبين المربين والمزارعين في العصر الحجري الحديث Neolithic، وأرسل بعثة علمية للبحث في شمال العراق. وبعد ثلاثة مواسم استطلاعية وتنقيبية بين الأعوام 1948 . 1955، استطاع الأستاذ بريدود[2] Braiwood أن يكشف عن عشرة ونيف من المواقع المهمة ومنها جرمو الشهير الذي عد أقدم قرية في العالم. وكان لهذا الأمر أهمية بالغة. استطاع أمريكي آخر هو رالف

---

(1) ن:
H. Field, Ancient and Modern Man in South Western Asia, Coral Gobles , Calif, 1956.

(2) ن:
R . J. Braidwood and Howe, Prehistoric Investigation in Iraq Kurdidstan, Chicago, 1960.

سوليكي R. Solecki أن يكتشف الكهف المسمى شانيدار[3] Shanidar، الذي عرفنا بالعصور الحجرية العراقية المتوسطة التي تمتد ما بين (80000 . 35000). وأصبح عصر ما قبل التاريخ بالغ الأهمية في بلاد الرافدين، ولكن التنقيب قد توقف في شمال العراق بسبب الحروب التي لم تتوقف، ولا ندري متى تعود تلك التنقيبات التي أصبحت ضرورية لمعارفنا عن فترة ما قبل التاريخ العراقي.

1 . عصور ما قبل التاريخ.

هذا وتقسم عصور ما قبل التاريخ الحجرية تقليدياً إلى ثلاثة أقسام هي:

1 . العصور الحجرية القديمة Paleolithic.

2 . العصور الحجرية المتوسطة Mesolithic.

3 . العصور الحجرية الحديثة Neolithic.

ويعد الأول الأكثر طولاً وانغماساً في أعماق العصور الجيولوجية، المسماة بليستوسين Pleistocene، لأنها تمثل القسم الأحدث من تلك العصور فترجمة الكلمة اليونانية : Pleistos Kainos هو الأكثر حداثة في تاريخ كرتنا الأرضية الطويل.

ويبدأ عصر البليستوسين منذ مليوني سنة تقريباً وانتهى نحو (10000ق.م)، حيث بدأ بعده عصر الهولوسين Holocene أي «الحديث جداً» أو العصر المعاصر الذي نعيش فيه اليوم.

وتؤلف العصور البليستوسينية والهولوسونية ما يدعى بالعصر الرباعي!.

هذا وتتميز بداية عصور البليستوسين بارتجاجات نهائية وضعيفة للقوى الاهتزازية في القشرة الأرضية المتبقية من العصور الطويلة السابقة وبخاصة البيلوسين. هذه الاهتزازات والتشققات في القشرة الأرضية، قد أدت في النتيجة، إلى تشكل جبال طوروس وزاجروس الناتجة عن تشكل سلسلتي جبال الألب والهيمالايا. وما أدى في العمق، إلى

---

(3) ن:

R . Solecki, Shanidar, the Humanity of Neandrethal Man, London: 1971.

تشكل انهدام كبير يصل بين انهدام البحر الميت والبحر الأحمر وهو ما يسبب بعض الهزات حتى يومنا هذا. وكذلك سلسلة جبال البحر الأحمر التي تتصل بأفريقيا الشرقية. وأدت تلك الهزات أيضاً إلى تشكل انهدام الرافدين والخليج العربي متأثرة بشكل خاص بانزلاق شديد للهضبة العربية . الجزيرة العربية تحت تأثير انزلاق الشريط الجبلي للهضبة الإيرانية. وقد صحبت هذه التحركات للقشرة الأرضية أنشطة بركانية ما تزال آثارها متبقية في تركيا والقوقاز وإيران، وكذلك حقول الأحجار البازلتية البركانية في السويداء جنوبي دمشق.

وبعد أن اتخذت الأرض شكلها الحالي، دخلت في عصر من الهدوء النسبي والحت والانجراف الطبيعي الذي ساهمت بتطوره الانحسارات والامتدادات الجليدية في أوروبا وشمال أمريكا. هذا وتحتل العصور الجليدية الأربعة الكبرى الجزء الثاني من العصور البليستوسينية وتحمل في أوروبا الأسماء جونز Gunz ومندل Mindel وريس Riss وفورم Wurm.

وقد رافق الانحسارات الجليدية هطول أمطار غزيرة في المناطق الاستوائية وما جاورها، وتعاقبت مع فترات جفاف متجاوبة مع الجليديات الأوروبية الأمريكية.

وإذا ما عثرنا على بعض بقايا الجليد القديم في وديان ومرتفعات الشرق الأدنى أي في طوروس وزاجروس، فإن الجليد يتجاوز تلك المناطق إلى المشرق العربي عامة. ذلك أن التقدم الجليدي لم يتجاوز الخط الواصل بين لندن وامستردام وبراج وكييف طوال جميع عهود البليستوسين. وظل العراق والرافدين عامة بعيدين عن المناطق الجليدية، وتمتعا بشروط مناخية معتدلة وغير قاسية. ولكن ذلك كان كافياً للتأثير في طبيعتهما. وقد كانت الرياح والأمطار، خلال مليون سنة، عوامل حت قوية، ساهمت في تعديل وتغيير مجاري المياه، ومن قدرتها على تصريف المياه وقوة الحت، وبالتالي أثر ذلك

على تدفق المياه في الخليج العربي، إضافة إلى انحسار وتقدم الجليديات الشمالية[4] وقد امتلأت منحدرات الجبال والمنخفضات الرافدية ببقايا الحت والطمي الذي تشكل في أدوار ضعف الأمطار وقلة انحدار مجرى الأنهر والسواقي. ويبدو لنا أنه من غير الممكن تصور الزمن الذي كان فيه الفرات والدجلة أكثر عرضاً واتساعاً، وكانت روافدهما الصغيرة تشق مجاريها في هضبة طوروس وزاجروس، التي تحول قسم منها إلى وديان في أرض قاحلة.

من جهة أخرى، يبدو أن أسلافنا القدامى الباليو انتروب Paleanthropiens قد عاشوا في شرق أفريقيا، ولم يعثر على آثارهم في المشرق العربي، وقد انتشر خلفاؤهم الأرخنتربيون Archanthropiens الأنساب المنتصب (Homo erectus) في أفريقيا الشمالية وأوروبا وآسيا. ويعثر على أدواتهم الصوانية المشظاة، التي تشكل صناعة الحجر وميزات العصر الحجري الأدنى وبالتحديد في المراحل المسماة (ابيفيل Abbefrillie n وآخيل Acheulee n وكالكتون Calctonien وتياس Tayacien) يعثر عليها في معظم أرجاء البحر الأبيض المتوسط وبخاصة في مصر وسورية وفلسطين ولبنان حتى في السعودية وجنوب الجزيرة العربية، ولكننا لا نعلم سبب ندرتها في تركيا وإيران والعراق[5]. وبقدر ما كان الأخير مبكراً في دخوله التاريخ فقد كان متأخراً في دخول مرحلة ما قبل التاريخ. وقد كشف عن أقدم أثر للإنسان شمال العراق عام

---

(4)

H . E. Wright Jnri «Geologic aspect of the archaeology of Iraq». Sumer. II 1955. PP. 83 – 90; Climate and prehistoric man in the eastern Miditerranean» in Braidwood et Howe, PP. 88 – 97.

(5) من أجل المراجع الأجنبية المتعلقة بهذا الموضوع انظر رو المرجع نفسه ص367.

وبخاصة: Rappots Preliminaires dans Sumer , 8 (1952) – 17 (1961)

1949 بين كركوك والسليمانية (بردا بلكا)، وهي صوانيات مشظاة، منثورة قرب أحجار ضخمة من العصر الحجري الحديث[6].

وعثر عالم الآثار لما قبل التاريخ الأستاذ بريدود Braidwood على ورشة صيادين من العصر الحجري القديم، بعد سبر حُقق عام 1951، ويوجد فيها أدوات مثل البلطة والفأس أو القطاعة الحجرية. وقد أرخت هذه اللقي في أواخر الجليديات المسماة (ريس فورم) أي منذ نحو ثمانين ألف سنة. ويبدو أن أدوات الصيد هذه متناسبة مع أنواع الحيوانات التي تعامل معها الإنسان وهي الفيل الهندي والديناصور اللذان سيختفيان من المنطقة فيما بعد (المرجع نفسه رو ص54).

وقد كان المناخ معتدلاً في العصر الجليدي المتأخر «فورم» في شمال العراق، وعاش الإنسان في مغائر ومساتر صخرية دون أن نعلم عنه شيئاً وقد كشفت حفائر دورتي جارود Doroth Garrod عن طبقات كهف قرب السليمانية نعثر على أمثاله في مناطق مجاورة. ولكن المواقع العراقية التي تعود للعصر الحجري القديم الأوسط لا تبرر لنا مزاياه. وأمثلة ذلك هو موقع شانيدار Shanidar الذي نقبه رالف سوليسكي Ralph Solecki بين 1951 ـ 1960. (ن. المرجع نفسه). ويشرف هذا الموقع على نهر الزاب جنوب جبل برودست Baradost. وقد أمكنه التعرف على أربعة مستويات سكنية على عمق أربعة عشر متراً. وقد دلت الآثار من الرماد والعظام على سكن إنساني يعود لأكثر من بضع عشرات الآلاف من السنوات، وتتضمن الأدوات التي عثر عليها الأبد أو السنون (ج سن) ومقاشط وأزاميل ومثاقب، وهي مميزات الصناعة الموستيرية الكبيرة، ومما جعل هذا الموقع مهماً هو اكتشاف هياكل عظيمة لتسعة كائنات بشرية بينها طفلان، وتمثل جميعها الإنسان المدعو نياندرتال Neanderthal وصفاته المعروفة بثخانة العظيم وفك عريض وذقن منظورة وجبهة منخفضة وتنتهي بتقوس سميك ونقرة

(6) رو. نفسه.

مثلثة. ويبدو أن جميع هؤلاء النيادرتاليين قد ماتوا نتيجة انهيار صخرة كبيرة فوقهم. (رو نفسه ص 47). وقد لوحظ أن يد أحدهم قد بترت بسكين صوانية، بسبب مرض أصابها. كما وضع هيكل عظمي آخر فوق كومة من الأغصان والأزهار. وقد قدرت أعمار هذه الهياكل العظيمة بنحو 46900 . 50600[7]. هذا ولا تدل عظام الحيوانات المتبقية مثل البقر والماعز والخراف والخنازير والثعالب على تبدلات جوهرية بيئية، ولكن تحليل بعض بقايا الكهوف هناك، يدل على تنوع مهم في الطقس. فقد كان في البدء حاراً أكثر مما عليه اليوم، ثم تحول إلى البارد ثم إلى الحار الجاف، وكان ذلك نحو قبل 44000 سنة. وتدل الطبقات الأكثر سماكة في موقع شانيدار العراقي (انظر المرجع السابق) على أنها تؤرخ في نحو 26500 . 34000 ، سواء من خلال الكربون المشع أو من خلال صناعة الأحجار.

هذا وقد اصطلح على أن تكون نهاية العصر الحجري الأوسط في نحو 35000 وهو العصر الذي اختفى فيه إنسان نياندرتال وحل مكانه إنسان آخر يدعى الإنسان العاقل Homo Sapiens الذي راح ينتشر بسرعة فوق المعمورة، وينقسم إلى سلالات متعددة. ويتم التعرف عليه من خلال قسماته التي تشبه إنسان اليوم.

ومن خلال أنشطته المتنوعة، أي صناعة الأحجار ونحتها وتشذيبها والحفر على الخشب والعاج، والرسوم السحرية التي تبدو واضحة فيما يعرف بالعصر المجدلي (Magdalenirnne) في أوروبا وفي الموقع المعروف برسوماته في لاسو Lascaux وألتميرا Altamira.

ونعلم من جهة أخرى أن العصر الجليدي المدعو فورم Wurm كان أعظم برودة، قد بلغ مداه نحو عام 25000 وهيمن على المناخ والبيئة في سورية والعراق والشرق

---

(7)

A . Leroi – Gourhan, «The flowers foumd with Shanidar V. a Neanderthal burial in Iraq», Science, 190 , 1975, PP. 652.

عامة. وهناك تطوران مهمان يمكن ملاحظتهما في شمال العراق من خلال العصور الحجرية القديمة. أولهما توطيد العلاقة بين الصيادين من سكان الجبال وجيرانهم المحيطين بهم. علماً بأننا لا نعلم تماماً من أين جاء أولئك السكان الذين تركوا بعض آثارهم. إلا أن هناك ما يدل على وجود علاقة بينهم وبين سكان سواحل البحر الأبيض المتوسط (رو، نفسه). وهناك من الآثار ما يماثل ما عثر عليه في فلسطين وسورية، ويؤرخ هذا التطور في حدود عشرة آلاف سنة قبل الميلاد. وهكذا يمكن القول إن هناك مبادلات تجارية بين سكان شمال العراق وسكان سواحل سورية منذ ذلك العصر.

أما التطور الثاني: فهو على المستوى البشري. حيث أن المناخ لم يتبدل كثيراً في العراق الشمالي أي منذ 25000 إلى 130,000 (ما عدا موجة من البرودة). إلا أن الأرض وتشكلها بقي ثابتاً وله مواصفات أرض اليوم، عدا عن أن الأرض قد استغلت وقطعت أشجارها القديمة. وتكاثر إنسان يعيش على الصيد واللقاط في تلك المنطقة، وظهرت آثاره بشكل واضح في مواقع العصر الحجري الأعلى. وقد سمح الاستقرار الجيولوجي والمناخي بالتكاثر والاستقرار السكاني وهو ما يعبر عنه بالانفجار السكاني الذي دفع الإنسان إلى الاستثمار الأقصى للموارد الطبيعية، هذا الانفجار السكاني هو ما سيكون مقدمة «لثورة العصر الحجري الحديث» التي ستحدث بعد ألفين أو ثلاثة آلاف سنة متأخرة[8].

(8) إن المؤلفات المتعلقة بالعصرين الحجري الأوسط والحديث في الشرق هي لـ:

K . V. Flannery, «Orgin and ecological effects of early domestication in Iraq and the Near East». In, P. J. VCKO; G. W. Dimbleby (Ed.), The Domestication and Exportation of Plants and animal, London, 1969, PP. 73 – 99.

P . Singh; J. Mellart; J. Oates; J. P. Gregoire «L'origine et Ie developpement de la civilisation mesopotamienne au III, Millenaire avant notre ere», dans Production, Pouvoir et parente' dans le monde méditerraneen Paris 1981, p. 27 – 101.

العصر الحجري الأوسط Mesolithique

يعد العصر الانتقالي بين اقتصاد جمع الطعام وهو ما كان عليه الحال خلال العصر القديم، واقتصاد إنتاج الطعام (من خلال الزراعة وتربية الحيوان). وهو ما سيكون عليه الحال خلال العصر الحجري الحديث، وسيبقى هذا الوضع حتى وقتا الراهن. ويمتد هذا العصر من 9000 إلى 7000 قبل الميلاد تقريباً.

ويمكن معرف هذا العصر في مغارة شانيدار شمالي العراق في المستوى المرموز له بـB1 وفي موقع آخر على الزاب الأعلى. وقد عثر على أدوات حجرية مصنوعة من صوان محلية. كما يدل وجود بعض أحجار الأوبسيد المستوردة من جوار بحيرة فان على وجود علاقات تجارية مبكرة بين شمال العراق وهضبة أرمينيا. ونعثر هنا على أدوات حجرية مثل الطواحين والمطارق التي استخدمت لتكسير أو قشر الحبوب البرية أو الأعشاب النافعة. ومن بين الأدوات الجديدة مخارز عظيمة مزينة برسوم هندسية. مصنوعة من عظام الحيوانات وأسنانها. ويبقى غذاء الإنسان من اللحوم هنا، الماعز والخراف والخنازير والغزلان، ويبدو تجميع الخراف الصغيرة بداية لتأهيل مزيد من الحيوانات. كما عثر على آثار وبقايا الأسماك والمحاريات المصدفة والسلحفاة. ونعلم أن إنسان هذه الفترة هو الإنسان الإفريقي الأوروبي الذي يعرف من خلال جمجمته، ويدعى أحياناً إنسان البحر الأبيض المتوسط المبكر. وأمثلة ذلك الإنسان موجودة في شانيدار العراقية ومواقع أخرى. (رو ص 50). وتعود إلى ما بين 8920 . 8650.

إن مواقع الإنسان في العصر الميزوليتي في العراق التي نقب فيها حتى الآن قليلة، وهي مسكونة من قبل صيادين تركوا آثاراً حجرية من أدوات يومية وغيرها. وهناك مواقع بعيدة عن شمالي العراق تعود إلى الألف التاسع والثامن قبل الميلاد.

وهناك تل مهم لهذه المرحلة في سورية ألا وهو تل مريبط الذي يقع على منعطف الفرات على مسافة ثمانين كيلو متراً شمال شرق حلب. وحفر فيه الأمريكيون ثم الفرنسيون. وقدم معلومات تعود لزمن يزيد على ألف وخمسمائية سنة مقسمة إل ثلاث مراحل: أولها مرحلة الصيد والقنص باستعمال أدوات حجرية من نمط يعرف بالنطوفي

مصدره فلسطين ومنتشر في أرجاء سورية. وهذه المرحلة تعود لأبعد من 8600 ق.م. وهناك قرية وبيوت دائرية مبنية في الطوج. وتؤرخ (8600 . 8000) وأخيراً هناك قرية ذات أبعاد واسعة مؤلفة من بيوت مستطيلة وعدد من الحجرات التي حلت محل المستوى الثالث من مريبط (وهي بين 8100 . 7300). وقد بنيت هذه البيوت من حجر كلسي وملاط فخاري، وزينت بعض الجدران الداخلية برسومات هندسية. ولا نلاحظ هنا وجود حيوانات أليفة مثل الماعز والخرفان وإنما هناك حيوانات البادية السريعة مثل الحمار الوحشي والغزلان والثيران والخنازير والفهود. التي تصاد بوساطة القوس والنشاب. كما اقتات الإنسان هنا بالحبوب البرية والشعير والعدس والفستق ومعظم النباتات البرية.

ومما يجدر ذكره هنا أن القمح والشعير لم يظهرا بشكل تلقائي في أراضي المنطقة المعينة، وإنما كانا ينبتان في منطقة هضبة الأناضول على بعد مئة وخمسين كيلو متراً، ثم نقلت إلى تل مريبط لزراعتها[9].

وهكذا نستطيع أن نتعرف على المراحل الأولى لتأهيل ونقل وزراعة الحبوب في المنطقة. هذه الحبوب التي لم نكن لنعرف عليها دون جهود الإنسان في ذلك الوقت. ومما هو مهم في موقع مريبط وجود قرون وجماجم وعظام للثيران عثر عليها في قواعد بعض الجدران مما يدعو إلى عدها موقع تعبد ديني يذكرنا ببناء ديني في شاتال هيوك في هضبة الأناضول. وهناك مواقع أقل أهمية من تل مريبط السوري واقعة في جبال زاغروس، ولكنها تعكس حياة صيادين استخدموا الأدوات ذاتها واستفادوا من محيطهم بما فيها صيد الأسماك والأصداف. وتشهد بعض الأدوات الصوانية على امتداد العلاقة بين الناس من أرمينيا حتى الخليج العربي منذ ذلك الوقت.

وخلاصة القول:

إننا نشهد تحولاً عميقاً في ثقافة وصناعة الإنسان في هذه المنطقة خلال الفترة بين 9000 . 7000 ق.م. حيث نلاحظ مجموعات من البدو والصيادين قد بدأوا الاستيطان

---

(9) J . Mellaart, The Neolithic of the Near East, London, 1975, PP. 46 – 46.

والاستقرار والإنتاج الزراعي وبنوا البيوت الطينية المستديرة ثم المستطيلة واستخدموا الأدوات الحجرية والصوانية وقليلاً من الفخار. ومارس الإنسان طقوساً دينية بدأها بتقديس أمواته من أهله وبخاصة الأب تلك العادة التي تعود للعصر الموسيتري. ونشأت عبادات أخرى مثل تقديس الثور الذي يمثل الخطر والقوة فهو إذاً مرغوب. وكذلك تقديس خصوبة المرأة، التي تجلت في بعض المشخصات المكتوبة المضخمة والمصنوعة من الطين وسيغدو حجر السبج البلوري الأسود (Obstdienne) مهماً جداً في صناعة الحلي والتماثيل نظراً لمطواعيته في الصناعة وجماله. وسينتقل في معظم بلاد المشرق من الأناضول إلى الخليج وإلى أقاصي الشرق أي أفغانستان وبالعكس. وسينتقل معه التجار والأفكار والعادات والتقاليد والصناعات والمعارف الإوالية (التكنولوجية). وسيبدأ الإنسان بالتخزين، بصورة عامة، مبتدئاً بتخزين الأغذية للسنوات العجاف، وكذلك الحيوانات المدجنة كالخراف والثيران والماعز التي لن تصبح مدجنة قبل الألف السادس قبل الميلاد.

وهكذا نستطيع القول إن ثورة العصر الحجري الحديث قد بدأت وهي أول وأعظم ثورة انقلابية في تاريخ الإنسان بعد اكتشاف النار، إنه يدخل مرحلة الإنتاج المكثف المنظم. وقد بدأت هذه الثورة في معظم مناطق الشرق وبلاد الشام والعراق في أوقات متقاربة بين 8000 . 7500 ق.م حيث بدأ حصاد القمح والشعير في أريحا الفلسطينية وضفاف الأردن ونجد مثل ذلك في إيران الغربية، وتركيا المتوسطية حيث بدأت صناعة الأحجار الكريمة وأدوات نحاسية وبدا وكأن بلاد الشام والعراق في وضع متأخر قليلاً بالنسبة لما يحيط بهما[10].

العصر الحجري الحديث Neolilhique

إن أهم موقع يدل على العصر الحجري الحديث في العراق هو جرمو Jarmo في موقع صخري شمال العراق وقد حُفر من قبل الآثاري بريدود Braidwood بين الأعوام

(10)
V. G. Cilde, New Light on the Most Ancient East, London, 1952, 2e ed. P. 23 – 24.

1948 . 1955[11]م وقد كشف عن أكثر من خمسة عشر مستوى على عمق سعة أمتار. ولم يعثر على الفخار في العشرة الأولى منها. ويقدر عدد السكان نحو مئة وخمسين إنساناً، عاشوا في بيوت مستطيلة مؤلفة من عدة غرف.

وقد خاط هذا الإنسان ثيابه بالإبرة وخيط الصوف بمساعدة مغزل فخاري وطارة وإبرة من العظم. وقد صنع أدواته من حجر السبج بنسبة تقارب من أربعين بالمئة، والباقي من أحجار صوانية عادية. واستخدم القار لتثبيت النصال الصوانية. وظهر في الموقع طواحين حجرية وقوالب، وبقايا حبوب متفحمة وطبقات حبوب وأعشاب متحجرة، ويدعو هذا إلى تأكيد وجود نشاطات زراعية منظمة. وعثر عى عظام الثدييات والماعز أما الخراف فلم تظهر إلا بعد قليل. واصطيد إلى جانب ذلك، الخنزير والغزال والبقريات والمجترات وكذلك الدب والثعلب والفهد من أجل فرائها. وظهر عدد كبير من الحيوانات الصدفية والحلزونية. واستخدم العدس والبازلاء لصنع شوربة سميكة، بعد تحضير ماء مغلي بوساطة محرقة في حوض كبير مستدير أو بيضوي. وقد استهلكت هذه الشورية بوساطة ملعقة عظيمة. وشويت أطعمة أخرى بوساطة أفران أو محجرات ذات مداخن. وحمل الناس الذي عاشوا في الموقع عقوداً حجرية وقلادات من الفخار، وأساور من الرخام، وتعاليق من الأصداف لزينة الجسم والوجه حيث رسم عليه بوساطة مُغرة أو تراب صلصالي أحمر.

وعثر في هذا الموقع على أكثر من خمسة آلاف من المشخصات لحيوانات مثل الخنزير ولنساء عاريات وأفخاذ سمينة في وضع الجلوس.

ولم تظهر مقبرة منظمة وإنما دفن الأموات في حفر تدل على أن طريقة الدفن لا تختلف عما هو متعارف عليه في حوض البحر الأبيض المتوسط. لقد دلت الاختبارات الكيميائية والشعاعية على أن تاريخ هذا الموقع نحو /6750/ ق.م.

---

(11)

Eraid wood , Howe, P. 26 – 50, 184.

وهناك موقع حجري حديث يدعى علي كوش العراقي يعود تأريخه إلى 6750 . 6500 وهناك كثير من التشابه بين جرمو وهذا الأخير. عدا أنه عثر لأول مرة على الطوب أو اللبن الترابي وأقل كمية من حجر السبج وحجر اللازورد. أما الطعام والنشاط الزراعي فهما متماثلان.

وهناك موقع آخر في منطقة كردستان العراقية يدعى شمشارة على وادي الزاب. حيث لا يختلف كثيراً عن جرمو وزيادة استخدام حجر السبج الأسود البلوري الذي استورد من أرمينيا والأناضول. واكتشف حديثاً موقع آخر من قبل الروس في موقع المغربية على نهر دجلة وهي ذات أبراج مستديرة وجدار حجري يدل على أقدم تحصينات معروفة في بلاد الرافدين.

ويلاحظ غياب الفخار المنزلي من تلك المواقع، كما هي الحال في مواقع أخرى مثل تب جوران في إيران وحاسيلار في تركيا. ولا تزيد مساحات تلك القرى الحجرية على ثلاثة هكتارات يعيش فيها بضع مئات من السكان أوانيهم من الحجارة وبعض السلال القصبية المثبتة بالقار وربما استعملت أحواض ماء أو قُربٍ. وقد أجاد هؤلاء السكان استعمال العجينة الترابية لصناعة بيوتهم وخزائنهم التموينية وأحواض التسخين والطهي، وأهم من ذلك صناعة التماثيل والمشخصات السحرية اللازمة لطقوس عباداتهم[12].

2 . خلاصة:

لقد كان هذا مقدمة أو تمهيداً لبدء صناعة الفخار على نطاق واسع، وكانت أوائل الأواني الفخارية على شكل قصعة صغيرة قد ظهرت في موقع جانج دارح Gang dareh على جبهة إيران والعراق، تعود للألف الثامن قبل الميلاد. ونرى ما يماثل ذلك في جرمو العراقية بالإضافة إلى كسر الفخار المحززة أو مرسومة بخطوط مائلة وأرضية زهرية. وقد عثر على ما يشبه أوائل هذا الفخار العراقي المزين في جوران الإيرانية.

(12) Schmandt – Besserat, «The use of clay before pottery in the zagros», Expedition , 16, 1974, pp. 11 – 17.

ويشهد هذا على انتقال المعارف الصناعية وتطورها من مكان إلى آخر. ولا يغفل ضرورة هذا الفخار في فهم تاريخ ما قبل التاريخ إذ أن أكثر من خمسة وثلاثين قرناً تفصلنا عن ظهور التاريخ المكتوب، لا يمكن فهمها إلا من خلال عمل مؤرخي ما قبل التاريخ في هذا الفخار ومقارنته التي تدل على انتقاله وانتقال المعارف معه، وقبل الانتهاء من هذا الفصل، لابد من الإشارة ثانية إلى موضوع ما سمي من قبل العلماء الثورة الحجرية الحديثة. فقد تردد دائماً أن مكان تلك الثورة هو الهضاب المحيطة بالهلال الخصيب. حيث يعد المنطقة الوحيدة في العالم الذي ينبت فيه القمح والشعير البريين.

وقد أقام اثنان من علماء النبات هارلان Harlan وزهاري Zohary عام 1966 في الهضاب التركية حيث ينبت القمح البري وما يزال يغطي مساحات واسعة وطرحا السؤال عن ضرورة تدجين القمح في ذلك الوقت مع أن المساحات المتوافرة تكفي لعدد كبير من السكان، كما أن قمحها ذو قيمة غذائية تفوق نظيرتها في القمح المدجن؟ ويمكن لأسرة أن تحصد في أسبوع من القمح البري ما يكفيها لسنة. فلماذا كان إنسان ما قبل التاريخ في بلاد الرافدين يسعى بإصرار لتأهيل الحبوب وبخاصة القمح والشعير؟ وقد فسر بعض العلماء (Childe) ذلك بالتغيرات المناخية نحو الجدب والجفاف. إلا أن دراسات مناخية للعصور الحجرية أثبتت عدم وجود تغييرات مهمة منذ عصر الهيلوسين في الشرق الأوسط. وهناك نظرية تقول بوجود التوازن الطبيعي. وهجرة بعض سكان هذه المناطق نتيجة الانفجار السكاني وضرورة البحث عن مصادر جديدة للغذاء ومنها تدجين الحبوب في مناطق أبعد وأقل خصوبة. وهذا الأمر يتوافق مع ثورة العصر الحجري القديم الأعلى في تل مريبط وتل علي كوش حيث يقدمان مثالاً على إقامة مجموعات سكانية في مناطق نائية قاحلة مما أجبرهم على نقل زراعة القمح البري وتدجينه من أجل البقاء.

يضاف إلى ما تقدم من نظريات أن الإنسان بطبيعته حشور وراغب في المراقبة والتعرف على الأشياء. وله من الدوافع الروحية والثقافية، ما يجعله في عملية بحث دائمة. ولهذا فلا بد أنه قد راقب الطبيعة وحاول تسخير بعض منتجاتها لصالحه، وفي

وقت الأزمات، تظهر الحاجات، إنها صفة تميز بها الإنسان منذ اكتشاف النار حتى عصر غزو الفضاء بوساطة الصواريخ.